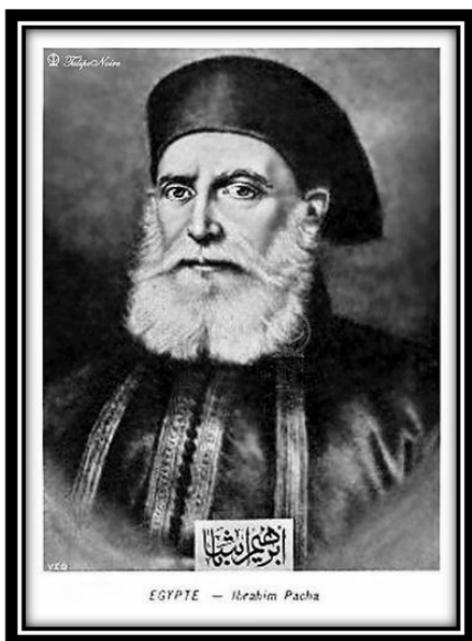


٢- الغازي يتذكر



” ومهما بعثوا من القواد العظام والجيوش الجرارة فلا يعقل أن يرسلوا أو يستحصلوا على أقوى وأشجع من عبدكم المخلص إبراهيم، ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا“

■ إبراهيم باشا

القلعة سبتمبر ١٨٤٨م

لم يخالجه النوم منذ حين، أضغاث يقظته تهلكه، كوابيسه تضعه في عالم القبور، بين الحياة والموت يعيش، غرفته ملونة بالدماء، كل قتلاه تجمعوا في سراديب عينه التي أغمقها الأرق، زعر.. ومرض.. وحياة حاكم يتهاوى، كل الرؤوس التي قطعها تمد أياديها لتقنص روحه، تطبق عليه أنفاسه، يكاد يصل إلى ما وصل إليه أبوه من "الخرف"، إنه الفاتح والغازي إبراهيم، هو الذي لا يقهر وهو فاتح عكا التي لم يستطع نابليون نفسه فتحها، إنه أسطورة تسعى بقدمين على أرض المحروسة، ولكن وا أسفاه اعتراه ذلك المرض العضال الذي لا يعلم ماهيته أحد.

ينسج له خياله صورة المعلم غالي^١ وهو يقترب من رقبتة، يحاول أن يفترس روحه، يتلفت إبراهيم لغدارته؛ مسدسه الذي

^١ المعلم غالي: جامع ضرائب محمد علي واقترح عليه حفر قناة بين بحر الروم وبحر العرب ولكنه لم ينفذ. ونتيجة لنجاحه الكبير قابله محمد علي بالرضا وأثنى عليه ومن ثمّ اتخذه كائماً لسره وخصّه مباشرة بالأعمال الحسابية التي ابتكرها، فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم. استمر المعلم غالي في هذا المنصب حتى مايو سنة ١٨٨٢م، حين أطلق إبراهيم باشا رصاص مسدسه عليه في مدينة زفتى، أمام ابنه طوبيا فخر صريعاً.

أفرغه فيه، طالما ارتعب منه الجميع، إنه حاد الطباع صعب المراس، لكن بقلب يمتلكه بعض من الرأفة والحب، يرى نفسه مصرّيًا حتى النخاع رغم قدومه المتأخر إلى أرضها، يحس بأنه شرب المصرية من شمسها وارتشف الحب من نيلها، ها هو يستفيق ويزمجر ويستقيم بجسده البدين وقامته القصيرة..

أخذ يسجح عينيه الرماديتين بقوة حتى يخرج نفسه من هذا العالم البائس البالي الذي يوصد عليه الحياة، ويا له من ألم إن لم تستطع النوم، ألم قاتل وموت محتوم.

دخل إلى مغارته التي اقتنص قواقعها وزيتها من البحر الأحمر، اعتاد الغازي على التدخين للساعات داخلها، يحاول النأي بنفسه داخل هذه المغارة، اصطحب طبيبه ديامنتي، أخذ يحدثه ويخاطبه وسط هذا الدخان الذي لا يجد منفذًا للخروج، ظل يتحدث ويتلعثم ويبوح بأسراره المكنونة.

- أتعلم أنني كدت أن أغزو الأستانة، كان حتما علينا أن نأخذ درة هذا التاج ونصير سلاطينها، لكن أبي الباشا تخاذل ورفض.

لم ينس إبراهيم قط ما فعله الباشا به، حينما بعثه كرهينة عند الباب العالي حتى تستقر الأمور ويستطيع أبوه أن

يدفع الجزية، يتذكر جيدًا كل كلمة كتبها حينما اقترب من إخضاع السلطان العثماني، لم يكن قد بقي له سوى خمسين فرسخًا، كاد أن يوقع الأستانة في أسره...

” أستطيع أن أصل إلى الأستانة ومعني محمد رشيد باشا، ولأستطيع خلع السلطان حالاً وبدون صعوبة، ولكني مضطر أن أعرف هل تسمح لي بتنفيذ هذه الخطة حتى أتدفع باتخاذ الوسائل اللازمة“

هو الآن يتذكر كل شيء، يتذكر عندما رجع للمحرسة مكللا بالغار؛ أقيم له احتفال دام لسبعة أيام وليال، احتفالا مهيبًا وتكريمًا لبطل مصر، وفارسها المغوار؛ لكنه الآن ليس بغازٍ، إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ويتحسس أيامه القليلة؛ يسألها أن تنتهي.

منذ أن رفض أبوه أن يراه وهو في حالة مضطربة، يشعر أنه صار منسيا، يشعر بأن كل ما فعله في حياته قد ذهب أدراج الرياح، والده الذي أفنى عمره وصحته وسيفه إرضاء له يتنكر له الآن وينسى كل ما فعله لأجله، منذ أن جمع محمد علي الأعيان وكبار الأحماس والأنسب دون أن يدعوه، وهو في جل التعب، ممزقة مشاعره، أصبح الأمر أكبر مما ينبغي أن يحدث، كلٌّ ينظر إلى الآخر بانزعاج شديد، هدد الكبير بأن يترك مصر ويذهب للحجاز،

لم يكن تهديداً بل كان يريد أن ينهي حياته بالحجاز يكفر عن أخطائه وسيئاته بجانب قبر النبي، حينها جمع ممالিকে وأمر بجمع مائتي ألف جنيه، كان عزمه شديد ولكن مرضه منعه عن الأمر.

ديوان الحكم هذا يكظم حركته، لا يرى العرش الآن كما كان يراه سابقا، ليس هذا العرش الوثير والحياة الرغدة بل دماء وحروب ومشقة، يشعر بالمرارة، لم ينسَ ما يردده الشعب عنه، ولم ينسَ ما قاله عنه الأتراك، هم من قذفوه بأقذع الألفاظ وأحط التهم، أشاعوا بأنه ليس ابناً لمحمد علي، أشاعوها بين قصره، في حوانيتها، شوارعها وحتى بين أفراد جيشه وحاشيته، فتداولها المصريون وشاعت بينهم، صارت كالنار في الهشيم، صار الكل غير مختلف على صحتها، كما أنه لم ينسَ ما قاله عنه الجبرتي^١ مؤرخ هذا الزمان وكأنه ينتقم منه في أبيه، فنعتة

^١ الجبرتي: يعتبر عبد الرحمن الجبرتي أهم وأبرز مؤرخ مصري ظهر في القرن الثامن عشر و مطلع القرن التاسع عشر ، حيث يعد كتابه " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار " مصدراً رئيسياً لأحداث مصر إبان الحملة الفرنسية و بعدها ، فيرى معظم الباحثين الذين درسوا تاريخ مصر زمن الحملة الفرنسية والفترة الأولى من حكم محمد علي باشا أن كتابه "عجائب الآثار" يعد اللبنة الأولى وحجر الزاوية في تاريخ هذه الفترة التي امتدت نحو قرن وربع قرن بين عامي "١٦٩٣ م و حتى ١٨٢٠ م، كان الجبرتي يرى أن محمد علي هو من قتل ابنه.

”بأنه شاب جاهل، حضر من بلده ولم يؤدبه مؤدب ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ولا منهيات، ولم يتخلق إلا بالأخلاق التي دربها عليها والده“

يراه بعضهم بأنه غشوم، ظالم، ويراها السوريون على أنه الحاكم العادل، هذا الذي جمع المظالم وخفف الأعباء، وأما محاربه وجنود جيشه فيرونه البطل المغوار الذي غزا الأرض وصنع إمبراطورية لم تشهد لها مصر من قبل، فهو الوحيد الذي راقهم ورقاهم وأفاض عليهم بعدله، بل يعتبرونه واحداً منهم ورمزا لهم، كان ينوي أن يذهب إلى آخر نقطة في العالم يمكن أن يتحدث فيها بالعربية.

يتذكر دائما رحلته للنقاهاة بأوروبا وطريقة معاملة الفرنسيين له، فهو الحاكم المنتظر بعد أبيه، يقدرون هذا المحارب الجبار الذي خرج عن كل نصوص كتب الحرب العظيمة، التي حتى أمر بترجمتها، يمر شريط حياته أمامه فيزهو بانتصاراته وفتوحاته، يتذكر الآن حينما حطمها.

أصبح أميراً لمكة، رُفع مقامه فوق جميع ولاة الإمبراطورية العثمانية، ظل دوماً الفاتح المغوار، لكن دوام الحال من المحال،

تجمعت عليه كل أوروبا^١، حتى السلطان العثماني نفسه، أمره أن يترك سوريا وكل أقطار إمبراطوريته التي صنعها بسيفه، وحروبه وجيشه، حتى والده لم يعد هو، يظن بأن والده سوف يدبر له أمرًا يهلكه، احتدم عليه السل، خائر القوى هو، لكنه لم ينس فتوحه بالشام، هو الذي أرسل لوالده عندما حاصر عكا^٢

^١ اتفاقية لندن ١٨٤٠ م: ونصت على "أن يحول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثي، ويكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سورية المعروفة بولاية عكا (فلسطين) بما فيها مدينة عكا ذاتها وقلعتها، بشرط أن يقبل ذلك في مدة لا تتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه هذا القرار، وأن يشفع قبوله بإخلاء جنوده جزيرة كريت وبلاد العرب وإقليم أدنه وسائر البلاد العثمانية عدا ولاية عكا، وأن يعيد إلى تركيا أسطولها، وإن لم يقبل هذا القرار في مدة عشرة أيام يحرم الحكم على ولاية عكا، ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي لمصر وسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وإرجاع الأسطول العثماني، فإذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان السلطان في حل من حرمانه ولاية مصر.

^٢ حصار عكا: بعد انتصار سهل عاد إبراهيم باشا إلى مهاجمة عكا وشدد الحصار عليها من البر والبحر بمساعدة العرب والدروز والموارنة وظل يطلق المدافع على أسورها حتى تصدعت فهاجمها بعنف ودافعت الحامية دفاعًا مجيدًا وفي النهاية استسلمت المدينة بعد أن استمر حصارها لمدة ستة شهور وفقد الجيش المصري أربعة آلاف وخمسمائة قتيل.

”ومهما بعثوا من القواد العظام والجيوش الجرارة فلا يعقل أن يرسلوا أو يستحصلوا على أقوى وأشجع من عبدكم المخلص إبراهيم، ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا“

كما لم ينسَ السودان الذي حُرق فيه أخوه إسماعيل، هذا الملك نمر الذي أسكر أخاه وجعله يحتسي المريسة^١ وأشعل فيه وفي جنوده النار، لم يتوانَ محمد علي باشا في الثأر لابنه منهم، أطاح برؤوسهم، أعلن أن من يأتيه برأس سوداني له جعبة من الذهب، أخذ حقه عن جدارة، ولم ينسَ حروبه بالموورة^٢ ولا نزيب^٣

^١ المريسة: مشروب سوداني محلي وهو مسكر ويصنع من التمر والذرة وغيرها.

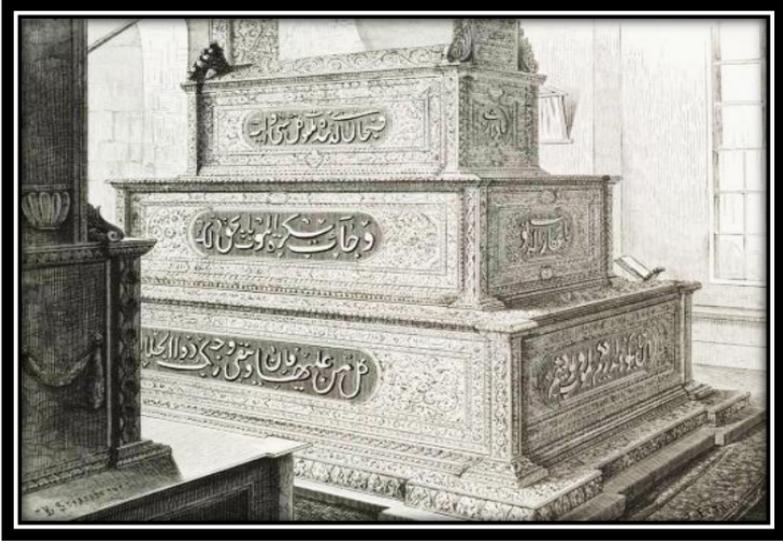
^٢ حرب الموورة: أولى الحروب التي خاضتها مصر خلال العصر الحديث، الحرب خاضها الجيش المصري في اليونان بناءً على أوامر السلطان العثماني للرد على الثورة اليونانية ضد العثمانيين بعد فشل خورشيد باشا في السيطرة عليها، حيث طلب السلطان محمود الثاني من محمد علي باشا السيطرة على الثورة في جزيرة كريت، وفي 10 يوليو ١٨٢٤، ألقع الجيش المصري من الإسكندرية تحت قيادة إبراهيم باشا، حيث تقابل مع الجيش العثماني ودخلا في معارك شرسة أدت إلى إعادة بلاد الموورة إلى سيطرة الدولة العثمانية.

^٣ معركة نزيب أو نصبين: وقعت معركة نزيب بين مصر والدولة العثمانية إبان عهد محمد علي باشا، وانتصر فيها الجيش المصري والذي كان تحت قيادة القائد إبراهيم باشا على الجيش العثماني الذي دمر بالكامل.

ولا حتى تلك النبوءة التي أُلقت إلى تلايبب كيانه الرهبة من الموت، منذ أن أخبره ذلك المنجم بأنه سوفه يموت قبل أبيه وهو يحاول أن لا يكثرث كثيرًا لكيفية موته، يخاف من الموت ولكنه الآن يطلبه، منذ أن انقلبت عليه معدته، ومنذ ذلك المرض العضال الذي استشرى بين أوصاله، هذا السل اللعين الذي يعذبه وهو يرقد في المغطس المملوء باللبن، هكذا حاول أطباؤه أن يفعلوا شيئًا لكي ينقذوه، منذ أن مرض واعتزته علتة هولاء يملس فمه شيئًا، شعر بدوار شديد، فاضت روحه وصعدت أنفاسه الأخيرة، بعد أن قضى ستة أشهر فقط على كرسي الحكم، ولكن ظل اسمه محفورًا في جدار الذكريات بأنه الغازي... المنتصر.. إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والمدفون بجوار الإمام الشافعي، وليعلو مدفنه

ب "سلامٌ على إبراهيم... قاد جيشه من نصر إلى نصر"





■ ضريح إبراهيم باشا



■ ميدالية تذكارية بمناسبة مرور ١٠٠ عام على وفاة إبراهيم باشا